1- «المنهج الثقافي، روحٌ تسري بين الأمم»

بقلم الباحثة « رانية محمود القوزي»
طالبة دكتوراه
kouzirania7@gmail.com

حاول فكر ما بعد الحداثة، الذي شاع في النصف الثاني من القرن العشرين، إنكار وجود القيم الأخلاقية الموضوعيّة، واعتبر أنّ الأيديولوجيّات الكبرى التي كانت من نتاج الحداثة(كالماركسيّة، والليبرالية، والاشتراكية، وعصر التنوير) لم تصل إلى ما تصبو إليه البشريّة من السعادة على وجه الأرض، لأنها اعتمدت سلطة العقل، وقد وصل الأمر بفكر ما بعد الحداثة، إلى رفض البنية الثقافية، وبالتالي رفض الهويّة الثقافية، واعتبروا أنّ النقد الثقافي هو الذي يحلّ اليوم مكان النقد الأدبي، ولمواجهة هذه الهجمة على القيم والأخلاق والدين والثوابت، كان المنهج الثقافي، وكانت الرؤية النقدية التي قدّمها الدكتور البروفسور «علي مهدي زيتون» في كتابه «**المنهج الثقافي ونظريّة الكشف**» الصادر هذه السنة، عن دار الحوار للنشر والتوزيع.

وضّحت مقدّمة الكتاب كيف أنّ سيرته مرتبطة بسيرة الباحث الكتابيّة، وأنّ فكرة المنهج الثقافي كانت فكرة غامضة في ذهنه، تبلورت شيئًا فشيئًا في مسيرة أبحاثه، حتى أصبحنا أمام كتاب جديد يشكّل توجّهًا جديدًا في النقد الأدبي، مرتكِزًا على نظريّة الكشف، ومتجاوزًا مَن سبقه مِن توجّهات نقديّة.

قسّم المؤلّف بحثه إلى فصلين: الأوّل نظري، والثاني إجرائي، في الفصل الأوّل بدأ بسردٍ موجَزٍ للتجربة الثقافية العربية الحديثة التي تأثّرت بالفلسفة الماركسيّة والوجوديّة عند الغرب: – الماركسيّة حيث لا ينبغي أن تكتب إلّا في نصرة العمّال والفلّاحين، وفي مواجهة الإقطاعيين والبرجوازيين، فينبغي على الأديب حمل فكرة تصدير الثورة، والتجرّد عن الحديث عن مشاعره وأحاسيسه وخياله وتاريخه، وهذا يعني أنّ الإبداع كان مُقيَّدًا؛ أمّا الوجوديّة فهي تصبّ اهتمامها على الفرد أكثر من تعلّقها بحياة الجماعة.

وكذلك «القومية» التي كانت من بين الأفكار الواردة من الغرب، في زمن الحداثة، والتي لاقت رواجًا عند العرب، بسبب ما عانوه من قمع من السلطات الأجنبية والمحليّة، مع ما خلّفته العنصريّة الإسرائيليّة من ممارسات لا مثيل لها في التاريخ.

يحدّد دكتور علي زيتون، توقيت تعطّل العقل العربي عن الإنتاج، مع بداية قرن الحروب الصليبيّة، فالقارئ العربي انزوى بعيدًا عن التأمّل والإبداع، وبسبب هذا الركود نشأت المثاقفة (تبادل ثقافي مع الغرب) التي، كما رأى د. زيتون، لا يمكن أن تجري إلّا على أمرين: أوّلهما ألّا ننسى تراثنا، وأن نتعرّف إليه ونتمسّك بما بقي منه حيًّا، وثانيًا، أن نمتلك ثقافة الغرب، ولكن دون أن نكون إمّعة. وهكذا، فإنّ المعرفة التي اكتسبناها من تراثنا، إضافة إلى ما يفيدنا من الغرب، يؤدّي إلى توطين هذه الثقافة بما يتناسب مع حياتنا.

وفي الفصل الثاني من الكتاب، يقدّم البروفسّور زيتون، المنهج الثقافي انطلاقًا من عدّة محاور حيث يعتبر أنّ للحقول المعرفيّة دورًا في النقد الأدبي، فعلم التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع وغيرها، عدّت كلّ واحدة منها، أنّها هي السلطة الوحيدة التي لها الحقّ في أن تقول رأيها في كلّ أمر، ومن بينها الأدب، فكلّ علمٍ من هذه العلوم، أبدى رأيه في الأدب، وأنتج منهجًا منتميًا إليه. جاء بعدها علم اللغة ليُحدِث ثورة وتحوّلًا في النقد الأدبي عبر ثنائيّة الدّال والمدلول، هذه الثنائية التي جاء بها دي سوسير صارت مع البنيويّة أساسا في إنتاج المنهج البنيوي مقابل سلطة الحقول المعرفيّة على الأدب. ولكن، كما يقول د. زيتون، فإنّ الجهد الكبير الذي بذله البنيويون في البرهنة على أنّهم المُدافعون الحقيقيون عن الأدبية، لا يجعلنا نقرّ لهم بما ذهبوا إليه، لأنّ المسألة الأدبيّة غير قابلة للحصر.

كلّ هذا يجعلنا، كما ذَكر المؤلِّف في الفصل الثالث من الكتاب، نتوجّه نحو منهج شاملٍ مُنتمٍ إلى الحداثة، هو المنهج الثقافي المُرتكِز، عبر الرؤية النقدية للدكتور، على ثلاثيّة، هي:

1- **الرؤية إلى العالَم**، أي الرؤية القائمة التي تتشكّل من عدّة روافد، وهي ثقافة الأديب وقناعاته وهمومه واهتماماته وانفعالاته، على أنّ ثقافة الأديب هي المسيطرة، ولها السلطة العليا بين مكونات الرؤية.

2- **العالم المرجعي**، ويُقصد به الزمان بتاريخيه، والمكان بامتداده، والإنسان بكلّ قضاياه، والأحداث بكلّ مضامينها، ويقول عنه، إنّه ليس أحاديّ الجانب، فلكلّ أديب رؤيته إلى العالَم مِن حوله، ولكلّ شخصٍ فرادته في التعبير عن العالم المرجعي في خطابه الأدبي، فتصبح الرؤية بصمة لا يمكن أن تشبهها بصمة أخرى.

3- **اللغة:** وهي التي تقدّمها رؤية الأديب في العالم المرجعي، عبر الخطاب الأدبي.

وبهذا يستنتج الباحث، أنّ الشاعر الكبير لا يمكن إلّا أن يكون مثقّفًا كبيرًا، والروائيّ الكبير لا يمكن أن يكون إلا مُثقّفًا كبيرًا، فالشاعر والأديب يمتلكان ثقافة عصرهما، يحاورانها، ويطرحان عليها أسئلة تُحرجها، ويعبّران عنها في خطابهما الأدبيّ، فهذان هما الشاعر والروائيّ الحقيقيّان، وهذا ما يصبو إليه المنهج الثقافي.

يوضح الكتاب، في فصلٍ رابعٍ، الفرق بين النقد الثقافي والتفكيكيّة، وبين المنهج الثقافي، فالتفكيكيّة تَعتبر أنّ الأدب حيلة من الشاعر أو الأديب لتمرير أنساق ثقافيّة منذ وُلد الإنسان على الأرض حتّى اليوم، وهذا يرتبط بمفهوم ما بعد الحداثة، فمصطلح الحداثة والبنيويّة قد سقطا بسيطرة ما بعد الحداثة، وهذا يعني سقوط سلطة العقل ومركزيّته أي سقوط الميتافيزياء الغربية، وهذا ما يجعلنا ندخل في غياهب التيه الذي لا قرار له ولا مركز، وتحلّ فلسفة الغياب مكان فلسفة الحضور. على عكس المنهج الثقافي المنتمي إلى الحداثة ببعديها العقلاني العلمي، والأخلاقي الشرقي، ولا يدّعي التعامل مع الخطاب الأدبي منفردًا، وبذلك يصبح المنهج الثقافي ثورة ثقافية، ينادي بالإصلاح الثقافي، والتطوّر العلمي، والأفكار المعتدلة، واستفادة العقل والضمير من تعاليم راقية، والحفاظ على المعنى الذي يحمي بدوره القيمة الإنسانيّة للغة الحاملة للهويّة والانتماء الوطني، والحفاظ على ثقافة المتلقّي المسكوت عنه في روايات ما بعد الحداثة.

في الفصل الخامس من الكتاب، يضع د. علي زيتون معايير يحتاجها الشاعر ليكون شاعرًا، وهي: الموهبة، وامتلاك فاعل لثقافة العصرّ، وقدرة على أن يقيم معها حوارًا مُستمرًّا يستطيع الكشف عن المأزق الخبيء داخل هذه الثقافة. وأنّ كلمة شاعر تعني أنّه مثقّف كبير بلغ منزلة المفكّر في حقل الشعر؛ أمّا مفهوم «الشعريّة» فقد تناوله في عصرين القديم، مع ابن رشيق(يربط التسمية بالموسيقى والغناء، العابق بقيم الجاهلية– في ظل الشفوية) والخفاجي(الفرق بين الشعر والنثر هو الوزن) والجرجاني(الشعر=العقل، لا الوزن) والقرطاجنّي(الوزن + الغرابة= الشعر).

يسترشد الكاتب ببعض الأعلام في إظهار مفهوم الشعر في العصر الحديث، منهم: جان كوهين(الشعر= الحيْد= المجاز)، (مبدأ النفي الإضافي، أي بالحيد يُلغى التضاد)، ثمّ كمال أبو ديب (الاختيار من خارج حقل التوقّعات= مرتبط بالمتلقّي، وهذا خروج على الأسلوبيّة والبنيويّة)، وأدونيس(قسّم الشعريّة مرحلتين: مرحلة الشعرية الشفويّة، ومرحلة الشعريّة الكتابيّة)، وخلُص المؤلّف إلى نتيجة، هي أن خصوصيّة رؤية الشاعر هي الشعرية، والإبداع الشعري فعل كشفٍ، فاعله ثقافة الشاعر وموهبته، والعالم بديع بذاته

وحسْبُ الشعريّة أن تكشف شيئاً من هذا البديع.

في الفصل السادس، ضِمن محور «السرد والمنهج الثقافي»، تجاوز د. علي زيتون برؤيته النقدية، نظريّتي الانعكاس (العمل الأدبي **انعكاس** للعالم المرجعي كما يراه عامّة الناس) والانكسار (حين يدخل العالمُ المرجعيُّ النصَّ الأدبيَّ يخضع **للتعديل والانكسار**)، وقد عزا هذا التجاوز، إلى قدرة الأديب في الكشف داخل العالَم المرجعي، ممّا يُظهر فرادته، مع الاعتراف بقدرة خلق الله وتعاليها على ما عداها.

ويشترط د. زيتون توافر الثقافة العالية المُحيطة بعصر الأديب ومجتمعه، لتكوين الكشفية، وأن يثير هذا الأديب بثقافته المُستمدّة من محيطه أسئلة مُحرِجة على مجتمعه، تنمّ عن قلق معرفيّ إنسانيّ تاريخيّ.

وينوّه الدكتور بأدبيّة الرواية في سياقها السيميائي (علاقة الدالّ بالمدلول من خلال النصّ)، فتحليل العلامة السيميائيّة هدفه التعرّف إلى الرؤية، وإلى عمق الثقافة التي تأسّست عليها، وعلى مدى قدرتها على النفاذ في عمق المادّة المرجعيّة، وبكلمة أخرى، فالأدبيّة هي نتاج كشف الرؤية للعالم المرجعي باللغة، والمنهج الثقافي الأسلوبي البنيوي، هو المنهج الموعود، وهو خاضع لحركة نموّ ثقافي نقدي عند الناقدين.

وإضافةً إلى ذلك، فإنّ الرؤية إلى العالَم (المُدرَك)، يتجاوز بها الإنسان من المدلول العام إلى المدلول الخاصّ استنادًا إلى رؤية المُدرِك (الأديب)، وهذه الرؤية فعالية مُركّبة، قِوامُها: الثقافة والقناعات والهموم والاهتمامات والانفعالات.

أمّا في القسم الإجرائي من الكتاب، فيُظهر المؤلّف كيف كانت نتاجات الروائي السرديّة تعبيرًا عن رؤية خاصّة مؤسّسة على ثقافة خاصّة، جعلته قادرًا على اكتشاف ما لا يراه عامّة الناس من مادّتهم المرجعيّة، وأنّ العالم الروائي عمقٌ من أعماق العالم المرجعي، لا انعكاس له، فيُظهر رؤية فاتن المرّ القائمة على الشفافية، وكيف عدّلت فيه في روايتها دون أن تمسّ الحقائق التاريخيّة في العمق والجوهر. وعرض لِ «يوميات آدم وحوّاء» بين الفنّي والمرجعي، وغيرها من الروايات التي عالجها الباحث معالجة طبّق فيها المنهج الثقافي، فتكشّفت من خلالها أعماق، أظهرت ثقافة الروائيين وانتماءاتهم، كما عرّج المؤلّف على الشعر وأزال اللثام عن المُخبأ، وأظهر شعريّة الفاصلة في «مجموعة محمود نون»، وآفاق الرؤية إلى العالم المرجعي في «كرسي على الزبد»، وغيرها من القصائد التي تكشّفت عن رؤى الشعراء لعالمهم، القائمة على ثقافتهم وهمومهم واهتماماتهم وانفعالاتهم.

وفي آخر المطاف، نخلص إلى القول، بأن المنهج الثقافي الذي هو من إبداعات الدكتور «علي مهدي زيتون»، هو ثورة رؤيويّة، تستقي جذورها من الرؤية الأساسية للكون وللبشرية وقضاياها، وبه تتجدّد الثقافة العربية، وتبني لها صرحًا عاليًا في الثقافة العالمية، وبهذا يصبح هذا المنهج روحًا تسري بين الأمم.